عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبدالوهاب النجار
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

— ٣ —

يزيد وال على اخراسان : تولى يزيد خراسان وفرق عماله وقد جعل وكده وهمته فتح جرجان . والسر فى اهتمامه بها أن قتيبة بن مسلم لما ولى خراسان بعد يزيد فتح فتوحا كثيرة فكان كلما فتح قتيبة فتحا يقول سليمان ليزيد وهو عنده: ألا ترى فتوح قتيبة ؟ فكان يزيد يصغر من شأن تلك الفتوح ويقول: فما صنعت جرجان التى قطعت الطريق وافسدت قومس ونيسابور؟ هذه الفتوح ليست بشىء، الشأن هى جرجان. فلما ولاه سليمان لم تكن له همة غير جرجان.

لم تكن جرجان فى ذلك الوقت مدينة وإنما هى إقليم جبلى، ففيه المضايق والمخارم الكثيرة. ى من الحصانة والمنعة بحيث يقوم الرجل الواحد على الباب من أبواب الجبل فيصد الجيش عن الاجتياز، وكانت تلك البلاد لم تفتح أيام فتوح عمر ، ولكن سعيد بن العاص ـ ايام ولايته الكوفة ـ قصدها فى جند كثير فصالحه اهلها على مائة الف درهم ليكف عن قتالهم فصالحهم، ولكنهم كانوا لا يؤدون مال الصلح بانتظام، بل كانوا تارة يؤدون وتارة يمنعون وكانوا يقطعون طريق المسلمين عليهم إلى خراسان ويفسدون فى البلاد المجاورة لهم كقوس ، فتحامى المسلمون طريق جرجان ، لذلك جعل يزيد جرجان اكبر همه وقصدها فى مائة الف مقاتل من اهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالى والمتطوعة و كان سكان تلك الجبال طائفة من الترك .

لا أريد أن أطيل على القارىء الكريم بذكر تفصيل ما أبلى يزيد فى جرجان وما لاقى هو وجنده من الصعاب، فتلك خطوب طويلة عريضة.. وإنما اقول: إنه فتح تلك البلاد وترك فى جهاتها المسالح لحفظ الأمن وحفظ خط الرجعة فلما أبعد عنها غدروا بمن عندهم من المسلمين وقتلوهم فرجع إليهم وحاربهم احد حرب إلى أن ظفر بهم وقتلهم شر قتل بعد اشد قتال وقتل منهم وأجرى الماء على دمهم حتى طحن عليه ووفى بنذره . وكان افتتاحها للمرة الأولى فى سنة ٩٨ هـ ، و كذلك فتحها للمرة الثانية .

وقد غنم يزيد فى غزواته اموالا كثيرة وسبى سبيا كثيرا ، وكتب بالفتح والغنيمة الى سليمان وعظم أمر الغنيمة تعظيما كثيرا وأنه قد بلغ خمس الغنيمة ستمائة الف الف أى ستمائة مليون من الدراهم. ولكن سياق الكلام يدل على أنه كتب الخمس اربعة ملايين فقط، لأن ابن الأثير قال فى آخر الكلام: وقيل كان المبلغ اربعة آلاف الف.

لما كتب يزيد بمقدار المال عارضه كاتبه المغيرة بن ابى قرة مولى بنى سدوس ، وقال له لا تكتب تسمية المال فانك من ذلك بين أمرين — إما استكثروه فأمرك بحمله وإما سمحت نفسه لك به فأعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذى سميت مخلدا فى دواوينهم ، فان ولى والٍ بعده أخذك به وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض بأضعافه ولكن اكتب فسله القدوم وشافهه بما أحببت فهو أسلم. أما يزيد بن المهلب فلم يصغ إلى هذه النصيحة الصافية فأمضى الكتاب وأرسله إلى سليمان .

عزل يزيد بن المهلب وسجنه : ضرب الدهر ضرباته وتوفى سليمان بن عبد الملك لتسع من صفر سنة ٩٩ وولى عمر بن عبد العزيز بعده وكان عمر بن عبد العزيز يكره يزيد وآل المهلب ويقول: إنهم جبابرة، فهو بالطبع يكره ولا يتهم . وكان يزيد يكره عمر بن عبد العزيز ويقول: إنه مراء ، فكتب عمر إلى يزيد يأمره بالاستخلاف والقدوم عليه فاستخلف ابنه مخلدا وأخذ فى القدوم عليه ، ولكن عمه كان قد ارسل إلى عدى بن أرطاة يأمره أن يرسل إليه يزيد موثقا، وكان يزيد قد جاوز جرجان إلى واسط فلحق به موسى بن الوجيه الحميرى وقيده وبعث به إلى عمر مقيداً .

دعا عمر يزيد وطالبه بالمال الذى كتب به إلى سليمان — وهذا مصداق ماقاله كاتب يزيد له وحذره منه — فقال يزيد: كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به ، فقال عمر : لا أجد فى أمرك إلا حبسك. فاتق الله وأد ماقبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وحبسه بحصن حلب .

مخلد بن يزيد يسعى فى نكال ابيه : ولى عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الرحمن الحكمى واليا على خراسان، فأقبل مخلد بن يزيد بن المهلب إلى الشام وفى طريقه فرق أموالا عظيمة حتى قيل إن عطاياه فى طريقه بلغت الف الف درهم. فلما قدم على عمر قال له : يا أمير المؤمنين ! إن الله متع هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ماعليه فصالحنى على ماتسأل، فقال عمر: لا، إلا أن تحمل الجميع، فقال يا أمير المؤمنين! إن كانت لك بينة فخذبها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه، فان لم يفعل فصالحه. فقال عمر: ما اخذه إلا بجميع المال، فخرج مخلد من عنده ، فقال عمر: هذا خير من أبيه، ثم لم يلبث مخلد إلا قليلا حتى مات وصلى عليه عمر بن عبد العزيز وقال: اليوم مات فتى العرب وأنشد:

بكوا حذيفة لا تبكوا مثله حتى تبيد خلائق لم تخلق

ولقد هم عمر أن ينفى يزيد إلى دهلك (وهى جزائر بالقرب من باب المندب بالبحر الأحمر، وكانت منفى للصوص والفساق) فصرفه عن ذلك سلامة بن نعيم الخولانى مخافة أن ينتزعه قومه.

خوف يزيد بن المهلب من الوقوع فى يد يزيد بن عبد الملك: كان يزيد بن المهلب يفرق كل الفرق من تمكن يزيد بن عبد الملك منه لأمرين: أحدهما ما قدمنا من الحوار بينهما وتوعد كل منهما الآخر.

ثانيهما — أن يزيد بن عبد الملك وسليمان كانا على طرفى نقيض فى شأن آل أبى عقيل عشيرة الحجاج الثقفى، فكان صفو يزيد بن عبد الملك إليهم يحطب فى حبلهم ويجل موضعهم ويحدب عليهم ويقيهم من كل مكروه بكل مايسعه جهده، وهم بعد أصهاره لأنه كان متزوجا ام الحجاج بنت أخى الحجاج بن يوسف.

ولا يعزب عن القارىء الكريم أن الحجاج كشر عن انيابه ليزيد بن عبد الملك واتخذه هدفا لسعايته ورماه بكل عضيهة.

ولم يزل بالوليد بن عبد الملك حتى تغير عليه قلبه وسمح له بعزله وتعذيبه واغرامه واستخراج الغرامة منه، كما عذب إخويه: اباعيينة وحبيبا، ولم ينجه منه إلا هربه واستجارته بسليمان فهو موتور من الحجاج يتمنى أن يشفى غليله من آل أبى عقيل.

فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة كان من أكبر همه آل أبى عقيل فأخذهم وسلمهم إلى يزيد بن المهلب ليستخرج منهم الأموال، فبعث إلى البلقاء من اعمال دمشق من اخذ خزائن الحجاج بن يوسف وعياله فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيهم أخت أم الحجاج زوج يزيد بن عبد الملك، فعذبها فى سبيل المال، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب فى منزله فشفع فيها فلم يشفعه متجاهلا مكانته من الخلافة ومكانته إلى أبى عقيل منه، غير مقيم لذلك وزنا ولا حاسب لدورات الفلك حسابا، فقال له ابن عبد الملك: الذى قررتم عليها أنا أحمله، فلم يقبل منه ابن المهلب ذلك، وحمل ابن عبد الملك ما كان مقرراً عليها وكان مائة الف دينار أو أكثر وقال له يزيد بن عبد الملك: « اما والله لئن وليت لأقطعن منك عضوا » فقال ابن المهلب: « وانا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة الف سيف »

لما حصل يزيد بن المهلب فى سجن عمر بن عبد العزيز لم يهله ذلك، لأنه يثق بأن عمر يتعدى حدود الله فى أمره، وقد تغير اعتقاده فيه بعد ولايته. وقد كان فى سجنه مرفها لم يعتره بسوء ولم يعمل فى جسمه سوطا ولم يأخذه بعذاب.

فلما مرض عمر بن عبد العزيز وتحدث الناس بمآبه مرت على خاطر يزيد بن المهلب تلك الحوادث مرور الخيال على لوحة السينما، واستعرض أحواله مع ولى العهد يزيد بن عبد الملك وتصور هول ما يحل به من ألوان العذاب إذا ظفرت يداه به، وما يحل به من الهوان فى يده بعد أن كان يخاطبه مخاطبة الندللند، ويستعلى عليه فى الحوار استعلاء القوى القادر على الضعيف العاجز، فأخذ يضرب أخماسا لأسداس حتى هدته الحيلة إلى أن يصنع مع عمر بن عبد العزيز ماصنعه وهو فى أسر الحجاج من الهرب، فدبر أمره وصانع الحراس وبذل لهم من الرغائب ماسيل عليهم إطلاقه

وارسل إلى مواليه فأعدوا له الخيل والركاب فى مكان واعدهم عليه ووافاهم به وولى وجهه شطر البصرة وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتابا يقول فيه:

« إنى لو الله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة ».

ورد الكتاب على عمر وبه رمق فقال: « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه به وهضه فقد هاضنى ».

مات عمر بن عبدالعزيز على أثر ذلك وولى يزيد بن عبدالملك فكان أمر يزيد بن المهلب أكبر همه فأرسل الى ولاته بالعراق يحذرهم امر يزيد ويأمرهم بالاحتراس، وأمر عدى بن أرطاة والى البصرة أن يأخذ من بالبصرة من آل المهلب، فأخذهم وألقاهم فى غيابة السجن: فيهم المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب.

واما يزيد فأقبل على البصرة وقد أعد له عبد الحميد بن عبد الرحمن جندا يصدونه عن الطريق ويقتلونه إذا قاتل، فمر يزيد بالعذيب قريبا منهم ولم يعرضوا وجاء يزيد فى أصحابه وتلقاه أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع إليه من اهله وقومه الأزد ومواليه، فصار فى جند يخشى بأسه.

أما عدى بن أرطاة فقد جمع خمسة كتائب وأمر عليها الأمراء وخندق على البصرة، وأقبل يزيد فيمن معه لا يمر بكتيبة من كتائب أهل البصرة أو خيل من خيلهم أو قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه هيبة له حتى نزل داره، فاختلف الناس إليه، وأرسل إلى عدى بن أرطاة: أن ابعث إلى إخوتى وإنى أصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسى من يزيد ما أحب.

كان هذا الأمر مقبولا معقولا ولو أن عديا رضى به لكان الأمل فى حسن العاقبة مرجوا، ولكن عديا لم يعره أذنا مصغية وظل سادرا لا يبالى بزيد بن المهلب.

ندع يزيد هنيهة، ونقول: إن حميد بن عبد الملك بن المهلب أراد أن يتلا فى هذه الفتنة وسعى فى إطفائها من طريق الذهاب إلى يزيد بن الوليد بدمشق، وضرع إليه فى أن يكتب بأمان يزيد بن المهلب وآله لأن فى ذلك إطفاء الفتنة والقضاء عليها قبل أن تشب عن الطوق، وكأنى بالخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصغى إلى هذه النصيحة ومال إلى رتق هذا الفتق رغبة منه فى الترفيه عن الرعية فى بدء ولايته وأن يغضى ليزيد بن المهلب عن زلاته الماضية رجاء حسن طاعته فى مؤتنف خلافته، فكتب بأمانه وأمان آل المهلب، وأرسل كتاب الأمان على يد خالد القسرى وعمر بن يزيد الحكمى، وهذا يدل على ما عند يزيد بن عبد الملك من سماحة النفس ورجاحة العقل وحب المصلحة للرعية وقصد استصلاح المشاقين له واستخلاص طاعتهم.

ولو تم هذا الأمر لكان حسناً، ولحفظ آل المهلب ولم يستأصلوا، ولبقى لدولة آل مروان بهجتها وزينتها وعنفوان مجدها.

نرجع إلى يزيد بن المهلب نجده قد اخذ يعطى الناس قطع الذهب والفضة، ويفيض نواله فيهم

باليمين وبالشمال، وعدى بن ارطاة الوالى لا يعطى كل جندى إلا درهمين، ويقول: لا يحل لى أن أعطيك من بيت المال درهما إلا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلغوا بهذا حتى يأتى الأمر فى ذلك. فكان تقتير عدى بن أرطاة وسماحة يزيد بن المهلب سبباً فى تكثير سواد يزيد وانضواء الناس إليه، حتى كثر جمعه وصار ذا قوة لا يستهان بها، ومازالت الأمور تترقى إلى أن التقى جند الحكومة بجند يزيد فهزمهم المرة بعد المرة، ودنا من القصر فخرج إليه عدى بن ارطاة بنفسه فى جنده، فقتل عدة من فرسانه: كموسى بن الوجيه الحميرى، والحارث بن المصرف الأودى وانهزم أصحاب عدى.

فى ذلك الوقت سمع من فى السجن من آل المهلب الأصوات فحدسوا أن يزيد قد خرج وانتصر وخشوا أن يأتى بعض من فى أنفسهم حقد عليهم من أتباع عدى فيقتلهم قبل أن يصل يزيد اليهم فأغلقوا باب السجن واستعدوا للقاء من يريد بهم شرا خلفه، وكان ماحدسوه حقا، فقد جاءهم عبد الله بن دينار مولى بنى عامر، وكان على حرس عدى بن ارطاة، وعالج هو وأصحابه الباب فلم يقدروا على قلعه وأعجلهم الناس فخلوا عن السجن وجاء يزيد بالسلالم وفتح القصر ووقع عدى بن ارطاة اسيرا فى يديه فحبسه وقال: لولا حبسك أخوى ماحبستك.

رؤساء اهل البصرة: لما ظهر يزيد بن المهلب على البصرة كان كثير من رؤسائها ظاهرين بمناوأته معدين لحربه مع الأمير، فداخلهم الخوف منه فطاروا: فريق إلى الكوفة، وفريق إلى الشام، خشية أن يعتريهم يزيد بن المهلب بسوء.

عمل حميد بن المهلب فى اطفاء الفتنة: فى تلك الأثناء أحس حميد بن المهلب - وهو أخو يزيد - تحرج موقف آل المهلب وأيقن أن يزيد بن عبد الملك غير تاركه، وهو رجل فى يده أموال الدولة الأموية ورجال الأقطار الاسلامية، وأن يزيد بن المهلب لا طاقة له بحربه وأن النتيجة فى آخر الأمر هلاك آل المهلب لأنهم لا يتركون يزيد فريدا، بل لا بد لهم من أن يضربوا من ورائه بسيوفهم، وان يقدموا أنفسهم وقودا فى اتون الحرب المنتظرة فعمل على تلافى الأمر، فخف إلى يزيد بن عبد الملك، وذكر له طاعة آل المهلب وبلاءهم فى خدمة دولة بنى أمية واعتصامهم بطاعة خلفائها، وأن يزيد ابن المهلب إنما ركب هذا المركب الخشن لخوفه منه، فلو بذل من الأمان ما تطمئن به نفسه لوجده سامعاً مطيعا.

وكأنى بيزيد بن الوليد قد رجا إطفاء تلك الفتنة بهذه الوسيلة، فأصغى إليه وكتب بأمان يزيد ابن المهلب وكل شىء اراده، وبعث كتاب الأمان مع خالد القسرى وعمر بن يزيد الحكمى ومعهما حميد بن المهلب الى البصرة.

(يتلى) عبد الوهاب النجار